"وأكرومة الحبيب خلو كما هيا" والأحاديث جمع أحدوثة لا حديث على غير قياس كما
يتوهمه جماعة من النحاة ومثلوا به للأسفار وزعموا أنهم أسفروا عن وجه كل
الأسفار . ونسوا أن يكون جمعا لأحدوثة زعما منهم أن الأحدوثة إنما نطلقه على
ما لا فائدة له ولا صحة فيه كالأخبار المعزوة للغول ونحو ذلك مما هو من أكاذيب
العرب وأن الحديث أعم منها والأعم غير الأخص كما لا يخفى وليس كما زعموا بل التحقيق
أن الأحدوثة مرادفة للحديث في معناه نطلقه على كل ما يطلق عليه ولا ينفرد أحدهما
عن صاحبه باستعمال كما صرح به الخفاجي الحريري ونظائره وتشهد له قوله

وكنت إذا ما جئت ليلى أزورها — أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها

من الخفرات البيض ود جليسها — إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

ولا يخفى أن أحاديث المحبوب في السمر والنجوى . أحب إلى قلبه من المن والسلوى . فيبعد أن
يجعل حديثها وكلامها من قبيل ما لا صحة له من الخرافات . أو يخاطبها بجعله في شرك
الأكاذيب . فأنى يأتي العاشق بما يقدح في كلام المعشوق . أو يصدر عنه الشائعة ما يتأذى
به المعشوق . وذلك مما تأبى شرعة العشق بإبطاله . وتفكك صولة الحب بعز سلطانه
وأبطاله . ولا سيما في مذاهب العرب . الذين عنهم تفرقت حلية الأدب . وتقضى منهم
الأرب . وإذا عيب عليهم كون المحبوب يتطيب ويستعمل الطيب . فكيف لا يكون عليهم معرة
في نسبة الكلام الذي لا صحة له في زعمهم عند مخالطته والتغزل فيه ونحو ذلك . حكى
الزبيريون أن امرأة عرضت لكثير فقالت أنت القائل .

فما روضة بالحزن طيبة الثرى — يمج الندى جثجاثها وعرارها

بمنخرق من بطن واد كأنما — تلاقت به عطارة وتجارها

بأطيب من أردان عزة موهنا — وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها

فقلت نعم قالت فض الله فاك أرأيت لو امرأة زنجية تبخرت أردانها بمندل رطب أما
كانت تطيب ألا قلت كما قال سيدك امرؤ القيس

ألم ترياني كلما جئت طارقا — وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

فإذا اغتفر مثل هذا في كلامهم وعيب به البليغ من نظامهم . فمن يتوهم أنه
أطلق الأحدوثة على ما لا صحة له لديهم . إذ ذلك مما يقدح في قوله ويشيد
للكذب

للكذب وهو أقبح قطيعة تعزى إليهم وانظر إلى إبداع ابن هانئ واقتداره حيث لم
يخاطب محبوبه ومعاتبه على الأخلاف بقوله

إن جئت لم تأت وإن لم أجئ — جئت فهذا أسل لي دأب

كأنما أنت وإن كنت لا — تكذب في الميعاد كذاب

كيف جاء بتلك الجملة الاعتراضية البديعة فنفى بها عن محبوبه الكذب وعادة بإخلاف
الوعد ولم يجزم بذلك بل جاء بكأنما الموقعة في شك على ما اقتضته البلاغة مع
اللطافة ذلك المنزع كما لا يخفى على البليغ ومما قررناه يسقط ما يتوهم من أن
الأحدوثة في البيت قد يراد بها ما لا صحة له لأن أحاديث المحبوب مبنية على
الأخلاف ولذلك حسن عدم الوفاء من المليح إذ على تقدير تسليم ذلك فالمدار
على مقصود العاشق والملاحة وهو لا يحسن منه ذلك كما أومأنا إليه ومماثل البيتين
قول ابن الرومي

وحديثها السحر الحلال لو أنه — لم يجن قتل المسلم المتحرز

إن طال لم يملل وإن هي أوجزت — ود المحدث أنها لم توجز

ونظر إليه من طرف خفي قوله

تصامت إذ نطقت ظبية — تصيد الأسود بالحاظ

وما بي وقر ولكنني — أردت إعادة الألفاظ

قلت قول كثير جثجاثها الجثجاث بجيمين وثاءين ريحانة طيبة الريح برية من أحرار البقول
قال جرير يهجو خليد عينين العبدي

كم عمة لك يا خليد وخالة — خضر نواجذها من الكراث

نبتت بمنبته فطاب لريحها — ونأت عن القيصوم والجثجاث

وإنما هجاه بالكراث لأن عبد القيس يسكنون البحرين والكراث من أطعمتهم العامة
والعرار البهار البري وهو حسن الصفرة طيب الريح والواحدة عرارة قال الأعشى

بيضاء ضحوتها وصفراء العشية كالعرارة

وقوله موهنا أي بعد هدو من الليل أي بعد دخولنا في الليل وأنشد أبو زيد

هبت تلومك بعد وهن في الندى — بسل عليك ملامتي وعتابي

Copyright © King Saud University